المنهج التعليمي للمدارس والزوايا الدينية بحاضرة توات

بقلم
د. عبد الخالق قصباوي
جامعة أدرار ـ الجزائر
abdelkhalekkasbaoui@gmail.com

ملخص البحث

البحث الموسوم بالعنوان أعلاه، مقاربة علمية وصفية تحليلية حول أثر المنهج التعليمي لحاضرة من حواضر العلم في الجزائر – توات – تشتمل على مباحث ثلاث، وخاتمة، المبحث الأول يعالج المصطلحات المفتاحية ويحلل المفاهيم للموضوع، ويرسم جملة الدور الحضاري الذي لعبته توات في العصر القديم والمعاصر في نشر رسالة الإسلام الوسطية السمحة.

أما المبحث الثاني، فيعالج مظاهر المنهج الوسط للزوايا والمدارس الدينية بهذه البقعة من الجزائر ذات المنهج التعليمي الخاص الذي تسلكه في صناعة فرد متزن بثلاثيته المرتكزة على التربية الاعتقادية الوسط، وفق منهج الإمام الأشعري، وفروع الإسلام أيضا، مما ارتبط بالتربية الفقهية نظريا وتطبيقيا تربية فقهية لم تعرف غير مذهب مالك ذو خصيصة محاس الجمع والانفتاح على فروع المذاهب، والمختوم بالتربية السلوكية وفق منهج الإمام الجنيد، مؤمنة بخاصية علو الروح وصفائها بزوال صور الأكوان عن مرآة القلوب، تربية محمية عن الأطراف بضوابط الشريعة الإسلامية.

والمبحث الثالث، يحاول إبراز خصائص المنهج الوسطى للزوايا والمدارس الدينية بتوات وفق الأبجديات التي يسلكها، والمحددة في مظاهر مركزية التعلم بواسطة الشيخ، والتدرج في التعلم تدرجا تصاعديا حسب قدرات ومستويات المنتسبين إليها، مع الدمج فى العملية التعليمية بين العلم والتربية بغية صناعة الشخصية المتزنة، لتختتم تلك المحددات بمركزية الأدب الذي تعتبره في الترتيب القيمي قبل العلم، أما الخاتمة، رصدت النتائج وحاولت تقديم توصيات لهذا الملتقى الميمون الهادف، خصوصا في الزمن الراهن

المقدمة

لقد شهد الإقليم التواتي من أرض الجزائر ازدهارا علميا مبكرا على مدى قرون، وسط الصحراء الشاسعة، ويجزم الباحثون في تاريخ الإقليم، حسب ما توفر من مصادر، أنه شهد بشكل خاص في نهاية القرن العاشر الهجري 16 م انتعاشا ثقافيا وعلميا ملموسا، مهد للقرون التي جاءت بعده لاسيما القرنين الحادي عشر

والثاني عشر الهجري 18/17م نتيجة كثرة الأعلام، يضاف لذلك الحب الذاتي من قبل المجتمع للقرآن خاصة والعلم عامة، فأسهم معه هؤلاء العلماء في إنشاء المراكز العلمية والمدارس القرآنية التي كانت تقوم بمهمة التعليم في فنونه المختلفة من فقه وتفسير وأصول ولغة...الخ والتي بدأت نشأتها حسب ما وعته المصادر منذ القرن السادس الهجري واستمرت إلى العصر الحاضر، فخرجت ثروة بشرية ذات الخواص الفكرية زاحمت بها مختلف الحواضر، وصنعت جسما وسطيا في الفكر والعمل والسلوك لكل أفراد المجتمع عامة وخريجيها خاصة، صادة طاردة لكل الأفكار الوافدة، المتشددة أو المتحللة، فلم يتأثر مجتمعها بقيم الفكر الاستعماري الذي حاول احتواءها منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي 1899م لإيقافها عما تنشره من فكر الإسلام المعتدل، ولم يندمج في فكر التكفير المتشدد إبان تجربة الظروف الأمنية المعاصرة التي مرت على الجزائر، كما لم يتأثر بفكر مناهج ومذاهب ونحل وافدة، فلم يسجل التاريخ لأهله في التدين غير مذهب مالك ومنهج الإمام الأشعري، ومنهج التصوف السّني الجنيدي، البعيد عن الشطحات والغلو.

ومن هنا يطرح إشكال بقاء هذا المجتمع وفيا لمرجعيته طوال كل هذه الفترات مع كونه كان ملتقى القوافل المختلفة الاتجاهات يؤثر ويتأثر، فلماذا لم يتأثر بالثقافات والمناهج الوافدة من المشرق، وأعنى المد الديني الذي عرفته الجزائر، ولا من الغرب، وأعنى روافد الاستعمار، وهل لهاته المدارس دور في ذلك ؟.

والجواب على هذه الإشكالية يكشف عنه التعرض لمفهوم التكوين الفكري لهذا المجتمع من أرض الجزائر الذي رسمته الزوايا والمدارس القرآنية وبيان خصائص هذا التكوين ومدى تناغمه مع الفكر الديني الوسط وسطية الإسلام ذاته، وهذا ما سوف نتعرض إليه بإذن الله وعونه في هذا البحث، والمعد خصيصا لهذا الملتقى، – الوسطية في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام بإفريقيا وأوربا – مع ما يكتنفه من صعوبة شح وانعدام للمصادر والكتابات، ولذا نعدم دراسات سابقة له، – هادفين إلى ما يلي:

– الإسهام في تنوير القارئ بمعارف عن محضن عريق من محاضن التعليم الجزائرية، المهتمة بصناعة العامل البشري أساس كل تقدم ونجاح.

– العمل على كشف مكونات منهج من المنهاج التعليمية الدينية الخاصة التقليدية بمنطقة من مناطق الجزائر خدمة لطرق التعليم والتدريس المعاصرة في النظام التعليمي الحديث.

– الإسهام في صناعة الفكر الوسط للإنسان المعاصر في النظر للأشياء والتعامل مع القضايا، فهما وممارسة.

معالجة من خلال ثلاثة مباحث، مبحث يجلي المصطلحات، والثاني، يحاول إبراز المظاهر للمنهج التعليمي وأنشطته وآلياته للزوايا والمدارس القرآنية بتوات ومدى أثر الفكر الوسطى الذي تعمل على ترسيخه تلك المناهج، والثالث يكشف عن خصائص هذا المنهج الذي يقدمه هذا النوع من التعليم بهذا الجزء من أرض الجزائر ودوره في تعزيز وصناعة الشخصية الوطنية المتدينة تدين الوسط. وخاتمة ترصد النتائج وتقترح توصيات، مقدمين هذه المادة بمنهج وصفى مشفعة بالتحليل.

المبحث الأول: حاضرة توات ومظاهر نشاط المراكز العلمية والمدارس القرآنية

المطلب الأول: مفهوم توات وحاضرتها العلمية

مصطلح توات، اسم لمنطقة من مناطق الجنوب الغربي للجزائر، تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون في مصنفاتهم، كابن بطوطة والمؤرخ اليوناني، هيرودوت "[1]وابن خلدون والجغرافي ابن حوقل والرحالة المغربي العياشي وغيرهم.

يطلق عليها حديثا، في القرن 14هـ 1900م، ولاية أدرار، الشاملة للمناطق الثلاث، توات الوسطى، وقراره، وتديكلت [2] ؛ ويضاف لذلك منطقة تنزروفت، المعروفة إداريا بدائرة برج باجي مختار الحدودية.

وقد اختلفت الروايات المتعددة، في سبب تسميتها توات باعتبار النشأة، ما بين من ينحو منحى عدم عربية اللفظ ؛ إذ الأصل أنها استعمال قبائل زناتة، على اعتبار رأى من يرى أنهم أول الساكنة، كما أُطلق لفظ أدغاغ غير العربي على أدرار، فبدخول الاستعمار للإقليم تحولت باللفظ الفرنسي إلى " ADRAR، بحكم نطق حرف الراء المنقلب غينا.

ومن الروايات من ترى أن أصل التسمية من الإتاوات – الضرائب – واعتبرها ذلك الأصح[3].

وهذا المعنى الأخير – من كونها ملائمة للعباد – يتوافق ووصف طبيعة توات، كما قال المؤرخ التواتي، ابن بابا حيده في مصنفه "القول البسيط في أخبار تمنطيط" من كونها تتهيأ فيها العبادة والديانة والرياضة والزهادة"[4].

أما مصطلح الحاضرة، فيراد بها في معاجم اللغة من فعل حضر والجمع حواضر، الحضور ضد الغيبة، والحاضرة ضد البادية، والحاضر المقيم في المدن والقرى، والبادي المقيم بالبادية[5].

وفي الاصطلاح حسب هذا السياق المتعلق بمجال العلم الشرعي، تشكل جماعة أو طائفة في مكان مخصوص على منهج علمي معين [6].

وهو اسم مستحق لهاته البقعة من الجزائر، بحكم الزخم العلمي الكبير والعلماء الذين نشطوا حلقات العلم

---

[1] – مؤرخ إغريقي يوناني، صاحب مؤلف تاريخ هيرودتس.

[2] – انظر فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ط، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، رسالة دكتواره بجامعة الجزائر، ص 1، وحاج أحمد صديق، المراسلات اللغوية بتوات، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2008/2009م ص 12.

[3] – انظر الشيخ، محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة الشيخ عبد الله البلبالي كوسام ، ص 09.

[4] – انظر، ابن بابا حيده، القول البسيط في أخبار تمنطيط، "تحقيق الدكتور فرج محمود فرج، ط المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، د، ر، 1977م، ص 11.

[5] – انظر ابن منظور، لسان العرب، ط دار صادر 2003م د مع، ج04، ص 148.

[6] – زهير قزان. حاضرة توات المالكية أعلامها نوازلها خصائصها. مذكرة ماجستير. كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. قسم الشريعة جامعة أدرار. 2011/ 2012م، ص 12.

بمختلف فنونه منذ القرون الأولى، وصلهم تأثيرهم مختلف الحواضر العلمية المختلفة ببلاد المغرب والمشرق والتكرور بالأخص الذي وصله الإسلام وفقهه بسيرة التجار وعمل العلماء كالمغيلي ت 909هـ، وأبو القاسم التواتي ت 922هـ وأحمد التواتي، ت 1138هـ والشيخ مولاي أحمد الطاهري ت 1997م صاحب المدرسة الدينية، والذي أقام بمدينة تمبكتو المالية خلال 1356هـ 1937م.

المطلب الثاني: مفهوم الزوايا والمدارس الدينية

أ: مفهوم الزاوية : الزاوية في المفهوم اللغوي، واحدة الزوايا، من فعل زوى الشيء يزويه نحاه، وانزوى القوم لبعضهم إذا تدانوا وتضاموا، فاللفظ ذو معان متعددة، يفيد معنى الركن ومنه هندسيا الزاوية، كما يفيد معنى الانزواء، أي العزلة والانطواء، ويفيد أيضا معنى الجمع [7].

والناظر لتقسيمات الزوايا من حيث تعدد الوظائف يمكنه القول: إن كل تلك المعاني، قد تصدق على لفظ الزاوية، فهي مجمع الناس وركنا يؤوون إليه، وملجأ ينعزلون ويختلون فيه طلبا للصفاء الروح .

وفي المفهوم الاصطلاحي،.جاء في بحث أستاذنا محمد دباغ، أنها: مؤسسة دينية اجتماعية وثقافية ذات مهام ووظائف مختلفة"[8].

ويمكن أن نحدد لها تعريفا حسب واقعها يعنى: مركز ديني ذو أبعاد ووظائف مختلفة ".

ومن خلال هذه المفاهيم المذكورة، يتضح أن الوظائف التي أنشئت لأجلها الزوايا في توات، يجعلها أنواعا أيضا، منها الخيرية والصوفية والعلمية، ونحن نتوجه هنا إلى ما له اتصال مباشر بالعلم والتربية مما يرتبط بالمدارس العلمية ذات المنهج الخاص في التدريس، والنظام الداخلي.

ب: مفهوم المدرسة الدينية

قبل تحديد مفهوم مصطلح المدرسة الدينية، أود أن أشير إلى أن الواقع الاستعلامي لمصطلح الزاوية والمدرسة في توات في الزمن الحاضر يشهد إطلاقا للفظ بالمعنيين، فيطلقون لفظ زاوية الشيخ بلكبير مثلا ويقصدون مدرسته الدينية والعكس، فما الأصل في الإطلاق ؟، الجواب، إن إطلاق لفظ الزاوية على المدرسة الدينية في الزمن الحاضر إطلاق حديث، بينما الاستعمال الذي ندركه منذ أن عرفنا هاته المدارس تسميتها بالمدارس الدينية لا الزوايا، ولفظ الزاوية اختص في الاستعمال بالأمكنة التاريخية الخيرية المهتمة والمرتكزة على الجانب الروحي مما تعلق بالأوراد الصوفية وإيواء عابري السبيل، بينما المدارس إذا أطلقت انصرف المعنى للمراكز المختصة في العلم الشرعي من تحفظ للقرآن وتعليم مختلف العلوم الأصلية والفرعية، مع الإشارة إلى قيامها ببعض أدوار الزوايا التاريخية كإيواء عابري السبيل، وبناء على هذا بين النوعين اختلاف والتقاء، فيختلفان في المنشأ الأساس، فتختص الزاوية بالجانب الروحي الصوفي، بينما المدرسة الجانب العلمي، ويتفقان في تقاسم بعض الأدوار الاجتماعية من إيواء وإطعام، مع الإشارة إلى أن الاستعمال القديم الجامع لكل هذه

[7] – انظر لسان العرب ط، دار صادر، بيروت، ج 07، ص 83.

[8] – انظر، محمد دباغ، دراسات في التراث، ط، در 2007م م دار الغرب الإسلامي، وهران، الجزائر، ص 119

الاختصاصات هو لفظ الزاوية.

ومن خلال ما تمت الإشارة له، فإن لفظ المدرسة الدينية بتوات حسب الهدف والنظام والمنهاج التعليمي، يعنى، مركز علمي متخصص في تحفيظ القرآن وتعليم مختلف العلوم الشرعية واللغوية بمستوياتها الدنيا والمتوسطة والعالية، يشرف عليه شيخ ذو مستو عال في العلوم الشرعية، يعينه أئمة وأعوان دينيون على تطبيق البرنامج التعليمي الخاص والمتابعة الإدارية والسهر على تطبيق القوانين الداخلية لنظام المدرسة.

المطلب الثالث: مظاهر نشاط المراكز العلمية والمدارس القرآنية بتوات

لم تعرف الحركة العلمية الأفول في فترات تاريخ الإقليم منذ ما وعته المصادر، وأعني القرن التاسع الهجري، تعكسها الأنشطة المختلفة، من ضمنها تأسيس المراكز العلمية.

ولقد شهد القرن الرابع عشر الهجري 20م وما قبله، تأسيس مراكز علمية من تلك المراكز المركز العلمي بأقسطن، ببلدية دلدول، بفضل مجهودات الشيخ محفوظ القسطيني العالم المساهم في علوم مختلفة بما تركه من مؤلفات.

ومن تلك المراكز مركز كوسام العلمي المتميز أمه الطلبة من كل جهات الإقليم كالشيخ عبد الكريم البلبالي، والشيخ البكري صاحب جوهرة المعاني، والشيخ سيدي أحمد ديدي، شيخ الشيخ سيدي محمد بلكبير..الخ من الطلبة الذين واصلوا مهمة التعليم والإفتاء وبفضلهم لايزال الأثر ظاهرا في تواصل المدارس العلمية بالإقليم إلى العصر الحاضر، ومن تلك المراكز مركز بني تامر خلال منتصف القرن الثالث عشر الهجري، بعد عام 1245هـ، كما ذاع صيت المركز العلمي بسالي بوصول الشيخ مولاي أحمد الطاهري سنة 1944م.

ومن تلك المراكز مركز أدرار بفضل جهود الشيخ سيدي محمد بلكبير، الذي خرج أئمة وعلماء أفذاذ يواصلون اليوم المسيرة العلمية بالجزائر وخارجها [9].

إما بالنسبة لنشاطها، فلقد وعت المصادر أن أول مدرسة أوقل زاوية بإقليم توات الكبرى، يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن 06هـ على يد الشيخ مولاي سليمان بن على كما سبقت الإشارة، وتواصل الأمر مع كل شخصيات علمية ظهرت هنا أو هنالك إلى القرن 14/13هـ 19/مع الإشارة إلى أنها اعتمدت بالأساس تأليف الرجال على الكتب، خصوصا في العصر الحديث الذي عرف الظاهرة الاستعمارية حيث وجهت السهام من قبل المستعمر نحو إفساد الإنسان، بسلبه لقيمه من عقيدة ولسان وانتماء للإسلام، بعد سلب أرضه ومقدراته، فكان الإنسان النواة والنقطة المركزية التي تم بها الاهتمام، للحفاظ على تلك الشخصية الوسطية من التميع، أو التشدد الذي يصنعه الجهل الذي جاء الاستعمار لنشره، وهو هدف تضاف إليه أهداف أخرى كتحصين الناشئة بالربط بالقرآن مبكرا وحمايتهم فكريا وتقديم نماذج طيبة السيرة ليقتدى بها "[10] محققة الملامح المتكاملة لخريجي تلك

[9] – انظر حاج أحمد الصديق، التاريخ الثقافي، مصدر سابق، الفصل الثاني والثالث.

[10] – انظر رسالة المسجد س 13، ع 05 ذو القعدة ذو الحجة 1436هـ سبتمبر أكتوبر 2015م بحث مسعودة عطاء الله، بعنوان " التعليم القرآني في الطور التمهيدي، ص 52–53

المدارس خصوصا في الزمن المعاصر، منها إلى جانب الكفاءة العلمية الحب للوطن والتبصر بالواقع ومتغيراته والتسامح، والحفاظ على وحدة المجتمع حماية له من مختلف التوجهات متطرفة أو متحللة[11].

المبحث الثاني: مظاهر المنهج الوسطي للتعليم بالزوايا التواتيه:

كلمة منهج methode ليست مصطلحا أحادي المعنى في العلم، وإنما يحدد معناه الوصف المقرون، وبغض النظر عن المفاهيم للمصطلح في موضوع البحث العلمي، فإننا نقصد هنا المنهج كمجموعة منظمة من العمليات تسعى لبلوغ هدف [12] المتناغم مع لفظ نَهَجَ في اللغة الذي يعنى الطريق الواضح، فنهج الطريق أبانه وأوضحه وسلكه، والنهج مستقيم المنهاج [13].

وعليه فالمنهج هنا الطريقة المتبعة في تكوين مرتادي المدارس الدينية والزوايا بغية فرد صالح، مما يُدخل مجموع العمليات ذات الأركان المتعددة، من مكان – مدرسة أو زاوية– شيخ، طالب، منهاج، نظام .

والتعليم الشرعي بهذه المدارس التواتية على العموم نوعين، ذو خصائص مختلفة، دروس عامة موجهة لعامة المجتمع، وخاصة بالمنتسبين لهذه المدارس، ونقصر الحديث عليها، تعليمها متدرج يمر بمراحل أولها التعليم القرآني للمنتسب، المشتمل على التحفيظ والضبط ومعرفة أحكام الرسم وشواهده، مع اعتماد حلقة التكرار اليومي والأسبوعي، يتزامن ذلك في هذه المرحلة مع تلقين مبادئ المتون الأولية في العقيدة والفقه والآداب، بعد إنهاء الطالب لهاته المرحلة من حفظ للقرآن وتمكن من تلك المبادئ يسجل تلقائيا في ما يعرف بحلقة المجلس أو الوقفه أو المحضرة [14]، أو مجموعة الفقه كما يسميه البعض، فيجتمعون حول الشيخ ينفرد بهم عن أصحاب القرآن بغرض التعمق أكثر في مختلف العلوم الأصلية من تفسير وحديث وفقه وتجويد، وكذا مختلف العلوم التبعية الخادمة لها من لغة وأدب ومنطق وفرائض وحساب...الخ بمنهج مواد المتون، فيعرض الطالب بمفرده عبارة من المتن على الشيخ، فيشرحها له، أو يتم العرض بصوت واحد من قبل مجموعة طلبة الحلقة فيشرح الشيخ النص مع تقوية ذلك بالاطلاع على الشروح الخاصة لتلك المتون، ويمكن أن نمثل لمظاهر المنهج التعليمي لمدارس توات بالمواد الأساسية، المستهدفة بناء شخصية الإنسان الوسط، وذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: مظاهر المنهج الوسط في علم الاعتقاد

مما اختارته هذه المدارس لتثبيت العقيدة في قلوب مرتاديها سواء كانوا متعلمين أو عامة الناس المهتمين بالدرس العلمي، منهج الإمام الأشعري رحمه الله، من خلال اختيار منظومات شعرية أو مؤلفات نثرية حسب مستويات الطلبة، سواء كانوا من المبتدئين المشتغلين بحفظ القرآن الكريم، أم من المنتهين ممن يسمونه طلبة الفقه المتفرغين لمختلف العلوم، فتراها تحفظ هذه المتون وتشرحها، كمقدمة مصنف عبد الواحد بن على بن

---

[11] – انظر بحث محند أدير مشنان، نفس العدد بعنوان "تتبع المسار العلمي والمهني لخريجي مؤسسات التعليم القرآني في الجزائر، ص66– 67.

[12] – انظر موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ط 2، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 466.

[13] – الرازي، محمد، مختار الصحاح، ط 1، 1430هـ 2009م، دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، ص 349. وانظر أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة،تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، ط 1، 1432هـ 2011م، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص 1000.

[14] – انظر محمد دباغ، المذهب المالكي مناهج ومصطلحات، محاضرة المدرسة المالكية بتوات، ط سخري. الجزائر،2010م ص 32.

عاشر " مقدمة في كتاب الاعتقاد معينة لصاحبها على المراد، هذا المصنف الذي صرح مؤلفه بمكونات مناهجه في العقيدة والفقه والتصوف قائلا:

في عقد الاشعري وفقه *** وفي طريقة الجنيد السالك[15]

ثم يتدرج الطلبة فيدرسون مصنفات، منها مقدمة الرسالة لابن أبي زيد التي تبين أصول ومنهج عقيدة أهل السنة والجماعة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح، وما ارتبط بذلك من الفروع الفقهية، ختاما بفقه الآداب الشرعية.

ثم تؤكد وتثبت هذه العقائد بمصنفات أساسها بالنسبة للطلبة المنتهين وعمدتها وآخر حلقاتها، مصنف، جوهرة التوحيد، للشيخ إبراهيم اللقاني وشروحها المختلفة.

كل هذا التزاما بمنهج أهل السنة والجماعة الذي هو منهج الإسلام الوسط في التربية العقدية، فقد أرسى الإسلام العقيدة على منهج متوازن يضع الأشياء في محلها، ليربي المسلم تربية حقة لا إفراط فيها ولا تفريط، لا غلو ولا شطط، انطلاقا من تأسيس الإيمان على الجمع بين عالم الغيب والشهادة، وهذا واضح للعيان في تثبيت الغيبات عن طريق الحسيات، فلاوهم مما تثبته الفلسفة النظرية مما لا دليل عليه مما هو مغالات وتشدد، ولا تفريط بإنكار ما هو مشاهد ومحسوس، مما يصنعه الجحود، داعيا للنظر والتفكر لإثبات وجود الله عز وجل وجميع ما يستحقه من كمال نتيجة المعرفة أولا بالخلق لتتحقق معرفة الحق سبحانه، قال تعالى: " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [16].وقال أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [17]، وقال: " وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ [18]وقال أيضا: " الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ [19] وبناء على هذا قال علماء من الأشاعرة، أول ما يجب على المكلف النظر، لمعرفة الله، تلك المعرفة التي هي الجزم المطابق عن دليل، وقد أشار الشيخ اللقاني رحمه الله في جوهرة التوحيد إلى هذا الاختلاف قائلا:

إذ كل من قلد في التوحيد ******* إيمانه لم يخل من ترديد
ففيه بعض القوم يحكى الخلفا ****** وبعضهم حقق فيه الكشفا
فقال إن يجزم بقول الغير ***** كفى وإلا لم يزل في الضير

كل ذلك توسطا في عملية الجمع بين ما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي لا تستطيع الفراغ الإيماني بالله وبين الدليل المنطقي العقلي أو الحجاج المنطقي المثبت لها، مما أقرته النصوص الصحيحة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومراعاة لهذا في تثبيت العقائد اعتبر التفكر في الإسلام من أعظم العبادات، مما أرشدت

---

[15] – عبد الواحد بن عاشر، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2000 د ر، د س ص، 03.
[16] – الروم 9.
[17] – الغاشية الآيات. 17-18-19-20-.
[18] – الذاريات 20.
[19] – الملك، الآيات 3- 4.

إليه الآيات والأحاديث النبوية الشريفة ليس هذا محل بسطها.

ومما أرساه الإسلام، المنهج الصحيح في النظرة للأنبياء، فالاعتقاد الوسط فيهم وضْعُهم حيث وضَعَهم خالقهم، فلا تقديس مفرط ولا إهمال وعدم اعتبار مفرّط، وهذا انطلاقا من بيان واقع الإنكار على اليهود والنصارى وبالمقابل رسم المنهج الصحيح للمسلمين، قال تعالى في شأن المفرطين في الرسول عيسى – النصارى –: " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ [20] وقال مشيرا لهم في سياق آخر: " مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ "[21] ولازم الطعام واضح، فمن هو حاله كذلك لا يصح في العقل أن يكون إله ذا صفات الكمال المطلق، كما رد على المفرّطين، الذين رأوا صفوة الله – رسله وأنبيائه – مجرد أناس عاديين، فلم يهتموا بشأنهم يقتلونهم وينصرفون لأعمالهم، قال تعالى:" وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ [22] كما جاءت الآية عامة في كل الرسل وقد أرشدوا أتباعهم إلى التفكير العقدي الوسط في التعلق بهم وهم يثبتون عقائدهم عن طريق المحاجة والبرهان، قال تعالى:" قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ.."[23] وبهذا المنهج علم الإسلام أتباعه المعتقد الوسط في نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ "[24] آية حددت ميزته بالوحي لكنه في الأصل بشر، يوقف به عند ذلك، وبهذا نهى صلى الله عليه وسلم عن منهج النصارى المفرط قائلا:" لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله "[25] وبهذا المنهج ينظر لخلفائه من العلماء والصالحين، فلا إنكار للولاية وما تبعها من كرامات مما يراه المتنطعون، ولا اعتقاد للنفع والضر وعلم الغيب والتقديس إلى درجة تتخيل معها العصمة...الخ مما يـراه المفرطون في المحبة، ووفق هذا الطرح الوسط في العقيدة، في الله ورسله وما تبع ذلك من أولياء الله الصالحين، تربي هذه المدارس متعلميها والمنتسبين إليها، وجمهورها من العامة.

المطلب الثاني: مظاهر المنهج الوسط في علم الفروع الفقهية

عرف الفقه وبالحصر الفقه المالكي ازدهارا في الإقليم، إذ لم تعرف المنطقة غير مذهب مالك من حيث المادة الأساسية في التدريس والتفقيه في المدارس العلمية والإفتاء، وفي مجال تنظيم شؤون المعاملات المختلفة عن طريق حركة القضاء، الذي كان يشترط في القاضي إلى جانب قوة علمه وحسن سيرته ومعرفته بأعراف

---

[20] – المائدة 17.

[21] – المائدة.75.

[22] – ءال عمران. 112

[23] – إبراهيم. الآيات 10 – 11.

[24] – الكهف 110.

[25] – انظر فتح الباري، بشرح صحيح البخاري كتاب المغازي ط مكتبة الصفا، القاهرة، 2003م كتاب أحاديث الأنبياء، ح رقم 3445، ج 6، ص 594.

المجتمع تمذهبه بمذهب مالك رحمه الله.

وعليه، فمجهوداتهم المختلفة التدريسية والتأليفية الفقهية، حسب ما يظهر من مؤلفاتهم لم تعرف غير هذا المذهب المالكي، مع اطلاعهم واستفادتهم أحيانا من المذاهب السنية الأخرى هذا من الجانب النظري، من دون الاستطراد في بيان هذا، فالمذهب المالكي ذو خصائص من أهمها التوسط، جمعا بين الأدلة المختلفة في المسألة، إضافة إلى ما تضفيه قاعدتي مراعاة الخلاف والخروج من الخلاف ومن الجانب التطبيقي المرتبط بالفقه التطبيقي – الفتوى – ومن أمثلة وسطية الفتوى عند خريجي المدارس أمثلة دونتها مخطوطاتهم وتصانيفهم، نمثل لبعض منها في ما يلي:

-1 إفتاء علماء توات بأن لفظ محرمة، مخلية، في باب الطلاق يعد من باب الطلاق البائن بينونة صغرى.

وممن أفتى بهذا، الشيخ محمد بن عمر التنلاني، لمن سأله في بيان الحكم في من قال لزوجته مخلية محرمة ولا تحل لي إلا أن تحل أمي وأختي أو بنات أخي، فأجاب إن لم يتقدم طلاق للزوج في زوجته المذكورة فإنها تحل له بعد عقد جديد " [26].

وقد أكد هذا الانفراد والمخالفة لمشهور المذهب في هذه المسألة، ما جاء في نوازل الغنية في مسألة ألفاظ الطلاق إن لفظ الحرام أو الحلف بالحرام يفيد طلقة بائنة، جمعا بين الأقوال ومراعاة مقاصد الإنسان التواتي في ألفاظه.

قال الشيخ البلبالي، سيد الحاج وابنه عبد العزيز رحمها الله في الغنية:" فالذي جرت به الفتوى من شيوخنا فيه لزوم طلقة بائنة توسطا بين الأقوال فيه، ولجهل العوام وعدم قصدهم سوى التشديد، والمشهور في المذهب لزوم الثلاث " [27].

المطلب الثالث: مظاهر المنهج الوسط في علم السلوك – التصوف –

مصطلح التصوف استعمال حادث ما بعد القرون الثلاثة، ومما تهتم به المدارس الدينية في توات، غرس الثقافة السلوكية في قلوب طلبتها من خلال إدراج التصوف ضمن مقرراتها المترجمة في المصنفات، سواء تعلق الأمر بالمبتدئين أو المنتهين، ترتيبا متدرجا في العلوم، فيأتي في المرتبة الأخيرة بعد حفظ القرآن والتروي من فقه الإسلام – الفقه النظري – التتويج بعلم الإحسان، والذي تراه في فلسفتها تحققا بالإيمان والإسلام، ومن مظاهر هذا الاهتمام، نجد كتاب مبادى التصوف ومبادى التعرف لمنظومة ابن عاشر حاضرا، الذي ينطلق من توصيف عيوب النفس وكدراتها ليخلص للعلاج وفق طريقة التخلية ثم التحلية، وهذا ما ترسخه تلك المصادر لديهم في المقررات، منها قول صاحب السراج:

ثم التصوف به اختتم العدد ***** هداك ربنا إلى سبيل الرشاد[28]

فكما اهتمت به وأخرته في التعلم، لم تناصبه العداء أو تنكر أحوال أربابه التي كثيرا ما يتم الرد والأخذ

---

[26] – انظر، عبد الرحمان بن عمر التنلاني، غاية الأماني في أجوبة أبي زيد التنلاني، مصدر سابق، ص 03.

[27] – انظر غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات من القضايا والمسائل، مخطوط خزانة كوسام، أدرار، الجزائر ، ص 96.

[28] – عبد الله المساري، سراج طلاب العلوم، مصدر الشيخ العربي المساري، ص 198.

حولها، لأنها ترى التصوف بالمفهوم الوسط، هو نفسه الإحسان الوارد في نص الحديث المتفق عليه والمشهور بحديث جبريل، الذي حدد ماهيته بحسب درجتين، آخرهما عبادتك الله وهو يراك وأعلاهما مشاهدتك له بالقلب كأنك تراه بالعين، والذي وصفه صاحب المرشد المعين، المصنف الذي يتربى عليه الطلبة في هاته المدارس بقوله: "

وأما الاحسان فقال من دراه ***** أن تعبد الله كأنــك تراه

إن لم تكن تراه إنه يراك ***** والدين ذي الثلاث خذ أقوى عراك[29]

وهو مفهوم وسط، فلا إنكار لعلو الروح وصفائها نتيجة زوال كل صور الأكوان التي تنطبع في مرآة القلوب غالبا، تغليبا لأجسام الأعمال، ولا اعتبار لمفهوم الصفاء الذي له نهاية تنتهي به التكاليف، وتنجلي به المغيبات الخاصة بالمولى سبحانه، والملفت للانتباه هو الترتيب، فلم تهمل التصوف بالكلية، شأن مناهج المدارس المعاصرة فيما تعلق بالتربية الإسلامية، ولم تجعله في المقدمة، معتبرة التفقه والاهتمام به بدون تحقق تفسق، فهو نوع تفريط، والاهتمام بالتصوف بدون علم ولا فقه تزندق نوع إفراط، والناجي من الطرفين هو الوسط الجامع بين الفقه والتصوف مما يعد تحققا، وهذا المفهوم تكرسه وتثبته المقولة التي يرددها المشايخ " من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، وبهذا لم تناصب أبدا العداء يوما ما مع الطرق الصوفية وأحوالهم.

المبحث الثالث: خصائص المنهج الوسطي للتعليم بالزوايا التواتية

منهج التلقي في هذه المدارس التواتية عموما يمتاز بما يلي:

المطلب الأول : التعلم بواسطة الشيخ

العلماء نجوم لاهتداء أهل الأرض فهم ورثة الأنبياء والموقعون عن رب العالمين، تصاب الأمة بالرزايا بعد فقدهم، جاء في الحديث ": إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في الظلمات، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة "وأهميتهم تكمن في توضيح الغموض وإزالة الشبهات التي قد تعلق بذهن المتعلم خصوصا "[30] وطريق العلم المشافهة والتلقي المباشر، يأمن بها المتعلم الوصول للغاية وصولا سليما وسلميا أيضا كما يأمن من المخاطر التي قد تكتنف النص المدروس أثناء الفهم والتعامل، ضف إلى محذور أمواج الشبهات والشهوات، وهنا تكمن أهمية وينجلي دور الموجه، فترد مشاكل الأمة وقضاياها إلى العلماء في حال الجهل بحقيقة الحكم، حفاظا على الفهم السليم والتطبيق الصحيح للشريعة، قال تعالى: " فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " [31] وكان النصح للأمة في أي مجال مهمة واجبة عليهم قال صلى الله عليه وسلم ": من كتم علما ألجمه الله

---

[29] – عبد الواحد بن عاشر، المرشد المعين، مصدر سابق، ص 6.

[30] – المجلة س 02 ع 02 صفر 1426هـ مارس أفريل 2005م بحث بعنوان " العلماء مفاتيح العلوم" للباحث ع المجيد بيرم، ص 79

[31] – الأنبياء 07.

بلجام من نار " [32] وجاء في معنى قوله تعالى " وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ " [33]، فقرأ تعلمون بسكون العين وفتح اللام، وتعلمون بتشديد العين، فقراءة تعلمون من العلم، وقراءة تعلمون بفتح التاء وتشديد اللام تعنى تتعلمون، من قبل العلماء، وبناء على هذا نبهت المصادر إلى مرتكز الشيخ في التعلم، فلقد جاء في مصنف الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ": ولابد للمتفقه من أستاذ يدرس عليه ويرجع في تفسير ما أشكل عليه ويتعرف منه طرق الاجتهاد ويفرق به بين الصحة والفساد " [34] خصوصا في هذا الزمن المعاصر الذي توفرت فيه آليات المعرفة من كتيبات ومعلومات أنترنيت ومختلف الأقراص والمجال السمعي البصري....الخ مع ما تحمله من مختلف الثقافات ذات الأثر على المرجعية والهوية للشعوب والمجتمعات، إما تطرفا وتشددا وإما ميوعة وانحلالا بعيدا عن النظر الوسط، وفي نفس الوقت تربيتهم على التسامح في المختلف فيه من خلال اطلاعهم على مختلف الآراء والتوجهات في المسائل وإبعادا لهم عن المماحكات والجدالات الفارغة التي يسقط معها الأدب مع العلماء كما هو منحى المتنطعين.

واتباعا لهذا المنهج السليم في التربية والأهداف التي تحققها المشافهة كان أخذ العلم عن الشيخ مرتكزا هاته المدارس، تربي عليه طلبتها والمنتسبين إليها فلا مجال لأخذ القرآن من المصحف، أو العلم من الصحف مرددين دائما عبارة " لا تأخذ القرآن من مُصحفي ولا العلم من صُحُفي، محذرينهم بمقولة " من أخذ العقائد من الكتب غير الأديان، ومن أخذ الفقه من الكتب غير الأحكام ومن أخذ النحو من الكتب لحن في الكلام ومن أخذ الطب من الكتب قتل الأنام، مدللين ومقوين هذا المفهوم بالمحذور الذي وقع فيه الشيخ الجاهل الذي كان قد قرأ جملة من مصنف الرسالة لابن أبي زيد في قوله في أحكام الجنائز "وينصب عليه اللبِن " أي الطوب على القبر بعد الدفن، فقرأ الباء مشددة في ينصب ومفتوحة في لفظ اللبن، فكان يفتى ويعلم مدة بذلك، حتى حضر عالم يوما ما ورأى ذلك، فصحح الموقف وأنقذ الموتى والأمة من العنت الذي أوقعهم فيه هذا الصُّحفي، كما يذكرونهم بقصة الصُّحفي الذي قتل بقراءته غير الواعية لنص حديث الحبة السوداء شفاء من كل داء، بقراءة الحية السوداء ، وقديما قالوا كما ذكر ذلك الشاطبي ": إن العلم كان في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب وصارت مفاتحه بأيدي الرجال "[35].

ومما يلاحظ اليوم ممن وقعوا في الغلو أنهم لم يتعرفوا للعلم ولنصوص الشرع عن طريق مشايخ ومعلمين، مما من شأنه أن يعطيهم الفهم الصحيح للنصوص ويوجههم التوجيه الرشيد أثناء التطبيق، وإنما ارتبطوا بأشخاص معينين، وبكتيبات من هنا وهناك، فانكبوا على دراستها، وأخذوا معلوماتها مباشرة ليطبقوها على الواقع، فوقعوا في تحريف النصوص والفهوم السقيمة التي أدت بهم إلى تبديع و تفسيق وتكفير كل من يخالف ما عرفوه في تلك

---

[32] – صحيح، أخرجه أحمد رقم 10605 /ج 2، ص 508، كما أخرجه أبو داوود والترمذي وابن حبان وغيرهم.

[33] – – آل عمران 79.

[34] – – أبو بكر الخطيب البغدادي الفقيه والمتفقه . المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، ط 02: 1421ه، دار ابن الجوزي – السعودية.ج2/ 886.

[35] – الموافقات، ج1/ 91/ 96.

المصادر، ومن ثم ضلوا وأضلوا، ولذا ترى تلك المنظومات في هاته الزوايا والمدارس التي ترسخ الأدب في الطلب تركز على مركزية الشيخ في تلقى المعلومة، فمنظومة السراج لطلاب العلوم تؤكد هذا في قولها:

واقرأ على شيخ ذكى ذي ورع *** مهذب النفس هواه قد قمع

مشتهرا بالفهم والتحرير *** متصفا بالعالم النحرير[36]

المطلب الثاني: التدرج في أخذ العلوم

التدرج سنة الله في الكون، فالله خلق الإنسان المكرم بمراحل، نطفة فعلقة فمضغة فكساه لحما، وهكذا طبيعة خلق الكون متدرجة، قال تعالى: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ [37].

وكانت طبيعة الرسالة الخاتمة في مضمونها ومنهجها متساوقة مع طبيعة السنة التدرج الكونية، فالخمر والربا وغيرهما سل المجتمع العربي منهما سلا متدرجا فمن كون الخمر فيه منافع بحسب نظرة المجتمع إلى بيان أن تلك المضار أرجح من المفاسد إلى حرمة التعاطي مؤقتا عند اقتراب أداء شعيرة الصلاة إلى التحريم النهائي، وهكذا الأمر مع الربا من كونه محرما أضعافا مضاعفة إلى بيان وصف متعاطيه في حالة مخزية متدنية إلى التحريم النهائي، عبرت عن كل ذلك الآيات القرآنية، قال تعالى: " وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "[38] وقال: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا.[39] إلى قوله ": يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [40] وهكذا الشأن مع الربا، كما كان منهج ترسيخ تلك القيم واضحا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو، سرا فجهرا، يسالم إلى أن يجابه ويقاتل.

واقتداء بهذه السنة الكونية كانت طبيعة التدريس في هاته المدارس متدرجة كما ونوعا ترتيبا بيداغوجيا مدروسا [41].

فيبدأ الطالب فيها بالمبادئ الأولية عبر متون للمستوى الأول، فإذا ما اتقن ذلك انتقل لمستوى التدرج، فإلى التعليم العالي، لتربي في الطالب أن العلم بحر لا ساحل له، فمن أراده جملة تركه جملة، وفق القاعدة التي تردد " من أراد العلم جملة تركه جملة " منبهة إلى تعلم المهم من العلوم إذ العمر مهما طال قصير، محفظة له قول الهلالي في منظومته حول العلم التي تعد من مصادر مادة الأدب في هذه المدارس

وقدم الأهم إن العلم جم *** فالعمر طيف زار أو ضيف ألم

---

[36] – انظر المنظومة سراج طلاب العلوم، مصدر سابق، ص 204.

[37] – فصلت، 9- 10.

[38] – النحل، 67.

[39] – البقرة 219.

[40] – المائدة 90.

[41] – انظر، محمد دباغ، المذهب المالكي مناهج ومصطلحات، محاضرة المدرسة المالكية بتوات، مرجع سابق، ص 35.

أهمه عقائد ثم فروع *** تصوف وآلة بها الشروع

فمن لم يصبر للعلم انقطع ظهره، والوسط أخذه شيئا فشيئا، وهذا التدرج مقدس عند تلك المدارس، تعبر عنه مصادرها تارة بالعلوم الضرورية، وتارة بما يبتدأ به من العلوم، وتارة الأهم فالمهم، فيبدأ الطالب في هذه المدارس بحفظ القرآن أولا، فهو المادة الأساسية لمختلف العلوم التي تأتى بعدها، متدرجا بمعرفة الحروف وشكلها وطريقة نطقها، فإلى الكلمات وتهجيها، ثم السور الأقصر فالقصير، لفوائد ذلك من استيعاب المحفوظ وتجنب الملل بالطول، ثم العرض والتكرار، حاميا للمحفوظ بالحضور في حلقات القراءة الجماعية [42] وذلك على سنة أهل المغرب التي استقرأها ابن خلدون أثناء المقارنة بين منهجهم ومنهج غيرهم من المشارقة قائلا: واختلفت طرائقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم في اعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات، فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط لا يخلطون ذلك في مجالس تعلمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر إلى أن يحذق فيه [43].

ثم يدرس بعدها متنا مبتدءا كمتن المرشد المعين في الضروري من علوم الدين، وفق طريقة الإمام الأشعري، وفقه مالك، وطريقة الإمام الجنيد، وهكذا الأمر مع التجويد، تحفة الأطفال، ونفسه مع اللغة بدراسة متن الأجرومية، لتأتى مرحلة التعليم المتوسط، ليدرس في الفقه متن الرسالة لمالك الصغير – ابن أبي زيد – وأسهل المسالك، فملحة الإعراب، إلى مرحلة التعليم العالي التي يدرس فيها مختصر خليل، والألفية، وابن عاصم في القضاء، فعملية التدرج هاته هي منهاج التعليم إلا أنها في الوقت نفسه تربي الطالب على أن العلم مستويات والإبحار فيه يتم شيئا فشيئا، كما تربي فيه عملية الإبحار مدى اتساع المعرفة في مختلف الفنون التي تعلمها وحجم الاجتهادات المبذولة من قبل العلماء، فمهما بلغ من العلم يدرك أنه قليل أمام هذا الزخم، فتربى نفسيته على النظرة الوسط مدركا مدى عظمة الدين الإسلامي واتساع أحكامه لمختلف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، بعيدا عما يقع فيه المتنطعون ممن قرأ كتابا واحدا واطلع على رأي واحد ظنه الوحيد الأوحد والممثل الشرعي والحقيقي للإسلام، فتضايق بآراء غيره، معتبرا إياها خارج مجال الكتاب والسنة، ومن ثم فتح لنفسه باب تحقيره وتضليله وتفسيقه بل تكفيره.

المطلب الثالث: الجمع بين التربية والتعليم

مما تتميز به هاته المدارس أنها تجمع بين مختلف العلوم في المادة الواحدة أثناء التدريس، فتخدم كل مادة غيرها وفي نفس الوقت يأخذ الطالب من هذا الطريق الجوانب الروحية والأخلاقية التي تنبعث من إيحاءات الألفاظ ولو كانت مواد لغوية أو منطقية، فمثلا يقف الشيخ عند المعاني اللغوية والأدبية أثناء الشرح لجملة من جمل متن ما، إضافة إلى المادة الأساسية للمتن التي ينصب عليها الشرح، فيضم هذا المنهج أثناء الشرح التربية

[42] – عبد القادر باخو، بحث بعنوان " واقع التدريس وطرق التعليم القرآني بمنطقة توات " أدرار " مجلة رسالة المسجد، الصادرة عن وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، عدد خاص بجائزة الجزائر الدولية، رمضان 1425هـ نوفمبر 2004م، ص 69.

[43] – ابن خلدون. المقدمة. ديوان المبتدأ والخبر.ط دار الفكر. بيروت. لبنان. در. 1421هـ 2001م ج 01، ص 346.

والتعليم، لأنه يقف عند البعد اللغوي والفقهي والأصولي للفظ وإيحاءات المعنى التربوي أيضا، كشرح عبارة مصنف محمد بن علي بن عاشر مثلا في قوله ":

الحمد لله الذي علمنا **** من العلوم ما به كلفنا[44]

فيعرب الشيخ مفردات الجملة لغويا، ثم يقف عند المعنى الاصطلاحي لها، ليختم بالتوجيه العقدي، من بيان أركان الحمد وأن مصدر العلوم من الله وبالتقوى تنال، مستشهدا بقوله تعالى: "واتقوا الله ويعلمكم الله " مذكرا بآثار السلف كقول مالك رحمه الله ": ليس العلم بكثرة الرواية وإنما العلم نور يضعه الله في قلوب المتقين "[45].

المطلب الرابع: الأدب قبل العلم

معنى مفردة الأدب في اللغة، مأخوذ من المأدبة وهى الدعوة إلى الطعام، سمي بذلك، لأنه يدعى إليه فالأدْبُ أن تجمع الناس إلى طعامك.[46] ويراد به في الاصطلاح، كما عبر على ذلك ابن حجر في مستهل كتاب الأدب للإمام البخاري، بأنه الأخذ بمكارم الأخلاق، وتعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك، واستعمال ما يحمد قولا وفعلا، والأخذ بمكارم الأخلاق "[47] ولذا تحتوى تطبيقات الأدب على الرحمة الشاملة للرفق بالصغير والضعيف واحترام الكبير، والمحبة والأخوة، التواضع ولين الجانب والسماحة والرفق والابتعاد عن الآفات الاجتماعية المختلفة، والحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية مع الانفتاح على الحياة مما يسمونه التمدن المحمود إلى غير ذلك من ملازمات التوسط، التي تتنافى والتشدد الحاوي صاحبه للتكبر والعداء والكراهية والتفرقة....الخ مما نهاه عنه الإسلام مما حواه قاموس وصفات المتشددين.

فمما تتميز به هذه المدارس في منهاجها الدراسي، الاهتمام والتركيز على تكوين المتعلم تكوينا نظريا وسلوكيا أصيلا، يجعله يرتقى لمكارم الأخلاق، شفيقا بالمؤمنين، رحيما بعصاتهم، يعلم جاهلهم ويرشد ضالهم زارعا فيهم الأمل معرضا عن كل ما يقنطهم ويؤيسهم من رحمته وعفوه، تطبيقا والتزاما بقوله تعالى ": إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ..."[48] وبما جاء به الهدى النبوي كالأمر بالإحسان للوالدين ولو كانا مشركين، وحرمة القطيعة واعتبار الموصل بعدم المكافئ والرحمة بالأبناء واحترام الجار، واعتبار كل معروف صدقة، والنهي عن التحاسد والتدابر، والأمر بمنهج التيسير، كقوله يسروا ولا تعسروا " قوله صلى الله عليه وسلم ": لمن جاء يسأله من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله، قال أمك....[49]..إلخ مما لا يحصيه عدّ،

---

[44] – ابن عاشر، المرشد المعين، مصدر سابق، ص 03.

[45] – القاض عياض، ترتيب المدارك، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. ضبط وتصحيح محمد سالم هشام. ط دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 1. 1418هـ 1998م. ص 19.

[46] – انظر أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ص 64.

[47] – ابن حجر، المصدر السابق، ج 10 ص 465.

[48] – الحجرات، 10.

[49] – البخاري 5971ج 10.ص 466 .

مُبعدة طلابها عن أن يكون شغلهم الشاغل جمع العلوم والمعارف ، وتكديس الكتب والدفاتر وفقط ، ومن ثم تتبع زلات العلماء وخلافات الفقهاء، والخوض في لحوم العلماء، مما هو على حساب الأدب والأخلاق مما نعى القرآن الكريم على أصحابه ممن يحملون العلم ، ولا يدركون من منافعه شيئاً ، قال تعالى: " مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " [50].

وأقوال علماء السلف رضوان الله تعالى عليهم تؤكد إيمانهم بضرورة تعلم الأدب قبل العلم ، ، قال ابن المبارك رحمه الله: "نحن إلى قليل من الأدَب أحوجُ منا إلى كثيرٍ من العلم " [51].

ولقد طبق سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ذلك عملياً ، فلقد حرصوا على أن يتعلم أولادهم الأدب قبل العلم ، قال مالك بن أنس: كانت أمي تجهز عمامتي وأنا صغير قبل ذهابي لحلق العلم، فتقول: يا مالك خذ من شيخك الأدب قبل العلم.

فالتعلم قبل التأدب قد يقود المرء إلى الغرور والعجب والكبر وهي أخلاق لا يتصف بها أهل العلم، كما أن العلم بلا أدب قد يقود المرء إلى الزيغ والضلال فيتتبع رخص العلماء ولا يدري فيَضل ويُضل ، يذكر الإمام الزركشي رحمه الله، أن القاضي المالكي إسماعيل بن إسحاق الأزدي رحمه الله، قال: دخلت على المعتضد، فَدَفَع إليَّ كتاباً نظرت فيه، وقد جمع فيه الرخص من زلل العلماء، وما احتج به كل منهم، فقلت: إن مصنف هذا زنديق. فقال: ألم تصح هذه الأحاديث ؟ قلت: الأحاديث على ما رُوِيَت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، و من أباح المتعة لم يبح المسكر، وما من عالم إلا و له زلّة، و من جمع زلل العلماء، ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمَر المعتضد بإحراق ذلك الكتاب [52]

وتماشيا مع هذا الهدي للسلف في التربية والتعليم، كان علم الأدب مادة مرسمة في منهاج هاته المدارس بتوات، يرتبط بها الطالب في المراحل الأولى من التعليم عن طريق حفظ وشرح تلك المتون الخاصة بهذا الفن، كمنظومة هدية الألباب في جواهر الآداب، للشيخ حسين الجسر المصري،ت 1845م – 1909م، ونظم سراج طلاب العلوم في الآداب، للشيخ العربي بن عبد الله المساري المغربي ت 1232هـ ، وكذا مصنف نصيحة الشباب للشيخ الطاهر العبيدي الجزائري – السوفي مولدا، التقرتي مسكنا ودارا، – ت 1968م التي هي نصيحة وجهها لشباب الجزائر صحراء وتلا قائلا ".

أنوارها شراقة بالصحراء **** وهى لدى أرض التلول أحرى[53]

فالواقف برهة عند محاور تلك المصنفات نجدها تغرس قيم الحب والاحترام والتقدير والرفق...الخ، فمن

---

[50] – الجمعة، 05.

[51] – ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين، ط، دار الكتاب العربي بيروت 1416هـ 1996م ج02، ص 356.

[52] – بدر الدين الزركشي، البحر المحيط، ط، دار الكتبي 1414هـ 1994م ج08، ص 383.

[53] – نصيحة الشباب، طاهر العبيدي التقرتي، بشرح فتوحات العلي الوهاب، للشيخ عبد العزيز سيد اعمر، ط دار هومه الجزائر، دس، در ص 180.

ذلك قول صاحب الهداية في مطلعها مذكرا بمركزية الأدب مقارنا بين الولد المؤدب وغيره قائلا:

والولد المهذب المؤدب ***** هو الذي للخير دوما يكسب
يستوجب الإعزار والتكريما ***** ويستحق في الورى التعظيما
والولد الخالي من الآداب ***** يعد في جماعة الدواب "[54]

مذكرا فيها بآداب المتعلم في محيط مدرسته وأسرته منبها فيها على واجبه تجاه وطنه معتبرا محبة الوطن والدفاع عنه وخدمته من أرقى التمدن المحمود، مشيرا إلى أن سبب رقى الأمم المعاصرة اليوم – الغربية – هو التفاني في خدمته والصدق معه وتقديمه حقه على حق النفس والأهل، قائلا ":

وكن محب الوطن المعظم *** ذا غيرة عليه للتقدم
فحبه عد من الإيمان **** وبغضه من أعظم الخسران
فما نجاح الأمم الغربيه *** إلا بهذا الخصلة السنيه[55]

ونفس الهدف الذي ترمي إليه منظومة السراج التي كان الدافع لتأليفها الجهل وسوء الأدب مع المعلم، مبرزا مؤلفها أهمية تصحيح نية طالب العلم منبها له على آداب جمة كآداب المدرسة وآداب التلميذ مع الشيخ وهو الأدب مع العلماء، توافقا واستجابة للأمر النبوي، فقال عليه الصلاة والسلام ": ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا..."[56] قائلا له ":

وكن مطيعا والتمس رضاه *** ولا تحاول غير ما اقتضاه [57]

وقول الطاهر العبيدي السوفي التقرتي في منظومته التي تعد من مصادر هاته المدارس في الاعتراف بفضل الكبار وعموم الأسلاف من علماء وصالح الأعمال:

وكن شبابا شاكرا أسلافه **** ولا تقل ضلوا ولا خرافه [58]

الخاتمة

من خلال التعرف على واقع منهج التعليم بالمدارس الدينية بمنطقة توات بالجزائر، التي تعد حلقة لسلسلة ممتدة من القرن السادس الهجري إلى يوم الناس هذا أخذت على عاتقها مسؤولية الدين والوطن، يتبين ما يلي:

– المدارس والزوايا الدينية بهذه المنطقة، لبت رغبة طلبة العلم القاصدين، الذين لم يكونوا من الساكنة فقط وحدود الإقليم التواتي، بل تجاوزت إلى مختلف أرجاء الوطن الجزائري، فشملت مختلف حدوده شمالا وجنوبا وشرقا عن طريق استقبالها لطلبة العلم بمختلف الدول كتونس والمغرب وليبيا، ومالي وموريتانيا والنيجر....الخ

---

[54] – هدية الألباب، مصدر سابق، ص 01

[55] – انظر النظم هدية الألباب، ص 5– 6.

[56] – الحديث، أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال صحيح على شرط مسلم.

[57] – المنظومة مصدر سابق، ص 204.

[58] – المنظومة وشرحها فتوحات العلى الوهاب، للشيخ عبد العزيز سيد اعمر، ط، دار هومه، الجزائر، در، دس، ص 148– 149.

– تتميز الزوايا بمنهج خاص في التعليم ترتيبا وتنويعا مركزة على الأدب، بقت وفية له لم تتأثر بغيره، حفظها وعمل على استمرارها إلى الزمن الحاضر.

– تركيز مشايخها في الغالب على التكوين الوسطى للأفراد مع إمكانية تأليف الكتب، مدركين أهمية الثروة البشرية الموجهة للمجتمع المتدين تدين الوسط

– يسود منهجها الدراسي المتدرج المنطق الوسط مبتدئا بصغار العلم قبل كباره وفق مستوى وذهن المتلقي.

– المنهج الوسط في النظر حاضرا، فتربي طلبتها على الجمع بين المنطق والروح في النظر للأشياء، وهذا ما اتضح في تعاملها مع تثبيت العقائد والنظر للتصوف وتراثه، ونفس الأمر ينسحب على القضايا الفكرية كترسيخ فكر المواطنة والذي نجده حاضرا في منهاج الأدب الذي تعلمه للطلبة.

– وفي الأخير نمكن أن نسهم بتوصيات لهذا الملتقى الميمون تتعلق بالموضوع مبينين ذلك في ما يلي:

– إعادة الاعتبار من قبل المعنيين لهذه المدارس من حيث توفير الظروف الملائمة المادية والمعنوية للتعلم خصوصا وهي تؤدي وظيفة في ظروف مناخية صعبة.

– دعوتها للانفتاح على المحيط انفتاحا وسطا يجعلها تحافظها على نمطها وتستفيد من واقع العالم حولها خدمة للمبادئ والأهداف التي أنشأت من أجلها وصناعة لمواطن كفء، قدوة، محب يعرف عصره ويتفاعل مع متغيراته .

– دعوة الجهات التربوية – النظام التربوي الجزائري – في مختلف مراتبها حتى العالية منها إلى الاستفادة من منهاجها في المجالات المتقاطعة، كالتركيز على الأخلاق في التعليم ومزج العلم بالتوجيه والنصح والإرشاد للمتكونين، مما من شأنه أن يغيب تلك الآفات الموجودة اليوم داخل المؤسسات من عنف ومخدرات....الخ كما يعمل على صناعة جسم منيع ضد الأفكار المتطرفة أو المتحللة الموجهة للشباب والمتعلمين بعيدا عن مرجعية وهوية الشعب الجزائري.

شكرا للجميع، وفقنا المولى وإياكم لما يحبه ويرضاه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ملاحق

قائمة المدارس التعليمية ذات النظام الداخلي بولاية أدرار " من أرشيف مديرية ش د بأدرار"

الرقم	اسم المدرسة	المشرف عليها	البلدية
01	مدرسة الشيخ الحاج محمد بن الكبير	الحاج عبدالله بلكبير	ادرار
02	مدرسة الشيخ الحاج الحسن	الشيخ الحاج حسان الشيخ	انجزمير
03	مدرسة جامع الجيلاني	الشيخ بن براهيم الحاج سالم	ادرار
04	مدرسة مولاي التهامي اوقديم	الشيخ الحاج التهامي غيتاوي	ادرار
05	مدرسة بني مهلال	الشيخ بكاري محمد	تيميمون
06	مدرسة الدباغي (علي بن ابي طالب)	الشيخ الحاج عبدالكريم الدباغي	رقان

07	مدرسة تسفاوت	الشيخ بالحبيب الحبيب	فنوغيل
08	مدرسة الشيخ باي	الشيخ باي بلعالم	اولف
09	مدرسة نومناس	الشيخ الحاج عبدالقادر بكراوي	تمنطيط
10	مدرسة زاجلوا	الشيخ الحاج محمد العالمي	زاوية كنتة
11	مدرسة سيدي احمد ديدي	الشيخ الحاج احمد بكري	تمنطيط
12	مدرسة سيدي بوغرارة	الشيخ الحاج احمد خليلي	تيميمون
13	مدرسة لغمارة	الشيخ الحاج عبدالكبير بلكبير	بودة
14	المدرسة الطاهرية	الشيخ الحاج عبدا لله الطاهري	سالي
15	مدرسة تنقلين	الشيخ اوكادو الصالح	اوقروت
16	مدرسة الكنتية	الشيخ الحاج امحمد الكنتاوي	زاوية كنتة
17	مدرسة بوقندي	الشيخ محمد بوقندي	تسابيت
18	مدرسة باحو	الحاج لحبيب عبدالكريم	سالي
19	مدرسة الحاج محمد الدباغي	الشيخ الحاج محمد الدباغي	تنركوك
20	مدرسة مهدية	الشيخ الحاج عبد العزيز سيد اعمر	تيمي
21	مدرسة عثمان بن عفان	حلوات ملاي عبدالقادر	ب.ب.مختار
22	مدرسة أدغا	حماوي عبدالقادر	ادرار
23	مدرسة عبد الرحمان بن عوف	الشيخ المغيلي	بأنزجمير
25	مدرسة الكنتي	عبد القادر كنتاوي	قصر الجديد تامست
26	مدرسة عقبة بن نافع	زيني قادي	برج باجي المحتار

الصورة مأخوذة عن التلفزيون الجزائري "نشرة الأخبار" 2016م للمدرسة الدينية عبد الرحمان بن عوف بأنزجمير – أدرار.